

التمهيد لعلم النفس الاجتماعي لوليم مكدوجال

بمستلم
الدكتورة منيرة صامى

فيها من دوافع ، وفي الوقت نفسه يعالج دوافع السلوك
الإنسانى بطريقة منهجية دقيقة ذات صلة بالحياة الواقعية
فيقدم بذلك أساساً سيكولوجياً متيناً تبنى عليه العلوم
الاجتماعية الأخرى بناءها .

ولا تقتصر أهمية هذا الكتاب على تمهيده لعلم
النفس الاجتماعى ، ولا على أنه أول محاولة تضع علم
النفس فى خدمة العلوم الاجتماعية الأخرى ، لا تقتصر
أهمية هذا الكتاب على ذلك فحسب وإنما تتمثل بقوة
فى عرضه لمذهب من المذاهب الهامة فى تاريخ علم
النفس وهو المذهب الغرضى الذى تزعم مكدوجال
الدعوة إليه ، والذى يرى أن الأغراض أهم ما يعين
السلوك النفسى وأهم ما يميزه عن السلوك الفيزيقي . وقد
غابت أهمية هذا المذهب فى كتاب مكدوجال عن عيون
النقاد بعد دراستهم للطبعات الأولى منه ، مما حدا
بمكدوجال إلى إضافة فصول جديدة إلى الكتاب ،
يؤكد فيها أهمية هذا المذهب ، ويعرض فيها آراءه بشئ
أكثر من التحليل والتفصيل . وسوف نلخص هذه
الفصول الإضافية كما وردت فى الطبعة الخامسة
والعشرين التى صدرت سنة ١٩٤٣ ، وكانت الطبعة
الأولى منه قد صدرت سنة ١٩٠٨ .

قبل ظهور هذا الكتاب ، كان الجو السيكلوجى
السائد يؤثر فيه تياران . التيار الأول التحليل النفسى
وما انغمس فيه من سيكلوجية الأعماق ، وما قام عليه
من علم نفس مرضى . والتيار الثانى علم النفس التجريبي
المعملى ، وقد انشغل بدراسة العمليات العقلية والإحساس
والذاكرة . ولم يخدم التيار الأول الناس عموماً فى حياتهم
الاجتماعية ، ولم يتناول التيار الثانى دراسة الدوافع
الإنسانية التى تهتم سائر العلوم الاجتماعية ، مما دفع بهذه
العلوم إلى أن يضع كل منها علم نفس خاص به ، يبنى
أحكامه على أساسه ، فجاءت محاولاتها مرتجلة بعيدة
عن دقة التخصص المطلوبة .

ووقف مكدوجال بين هذين التيارين ، يرى أن
علم نفس يفسر حياة الجماعات وينظمها أولى بالاهتمام
من علم نفس مرضى لا تعم فائدته إلا قلة قليلة من الناس
ويرى أن دراسة دوافع السلوك الإنسانى ، ودورها فى
حياة المجتمعات ، أولى من دراسة العمليات العقلية
والحركية . وتمخض موقفه هذا عن الكتاب الذى
نقدمه اليوم والذى جاء ليخدم الغرضين معاً : يمهّد
لعلم نفس اجتماعى يدرس سيكلوجية الجماعات وما يتحكم

المؤلف : حياته ومؤلفاته

ولد وليم مكدوجال في لانكشير بإنجلترا في يونيو سنة ١٨٧١ وتلقى دراسته العليا في منشستر من سنة ١٨٨٧ إلى سنة ١٨٩٠ ، ثم انتقل إلى كمبرج وأكمل دراسته فيها من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٨٩٤ . وعين عضواً في بعثة كمبرج الأنثروبولوجية إلى مضيق توريس Torres Straits بين استراليا وغينيا الجديدة . وهناك زاد اهتمامه بالدراسات الأنثروبولوجية ثم عاد إلى إنجلترا ، وكان قد حصل على شهادة في الطب من جامعة كمبرج ، فعين محاضراً لعلم النفس التجريبي في الكلية الجامعية بلندن . وكون معملًا تجريبيًا يجرى فيه تجاربه في هذه الكلية ، كما اهتم بتكوين معمل مثله في جامعة أكسفورد حيث عين قارئاً في الفلسفة العقلية بعد ذلك ، ومكث بها من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩٢٠ . وفي هذه السنة دعتة جامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأمريكية ليكون أستاذاً لعلم النفس بها . كما دعتة بعد ذلك جامعة « ديوك » في ولاية كارولينا الشمالية ليكون أستاذاً لعلم النفس ثم رئيساً لقسم علم النفس بها . ولمكدوجال إنتاج ضخم من الكتب والبحوث والمقالات ، نذكر أهمها فيما يلي :

الكتب :

١ - علم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology
صدر سنة ١٩٠٥ .

٢ - الجسم والعقل Body and Mind
صدر سنة ١٩١١ .

٣ - علم النفس : دراسة السلوك Psychology : The Study of Behavior
صدر سنة ١٩١٢ .

٤ - العقل الجماعي The Group Mind
صدر سنة ١٩٢٠ في لندن وفي نيويورك .

٥ - الأمة بين الازدهار والانهيار National Welfare and Decay
صدر سنة ١٩٢١ .

٦ - موجز في علم النفس Outline of Psychology
صدر سنة ١٩٢٣ .

٧ - الأخلاق وبعض مشكلات العالم الحديث Ethics and Some Modern World Problems
صدر سنة ١٩٢٤ .

٨ - الأمة الأمريكية ، مشكلاتها وعلم النفس فيها The American Nation ; its Problems and Psychology
صدر سنة ١٩٢٦ .

وكل هذه الكتب تخدم ميدان علم النفس الاجتماعي وله كتب أخرى في الأمراض النفسية والطب النفسي ، وفي تطور العقل وطاقات الإنسان . هذه الكتب هي :

١ - موجز في علم نفس الشواذ Outline of Abnormal Psychology
صدر سنة ١٩٢٦ .

٢ - التطور العقلي Mental Evolution
صدر سنة ١٩٢٦ .

٣ - طاقات الإنسان The Energies of Man
صدر سنة ١٩٣٣ .

هذا فيما عدا كتب اشترك فيها مع آخرين مثل :

١ - السمع والشم والذوق والإحساسات الجلدية Hearing, Smell, Taste, Cutaneous Sensations
etc. بالاشتراك مع C. S. Myers ، وقد صدر سنة ١٩٠٣ .

٢ - قبائل الكفار في بورنيو The Pagan Tribes of Borneo
بالاشتراك مع C. Hose و صدر سنة ١٩١٢ .

البحوث :

لمكدوجال مجموعة كبيرة من البحوث التجريبية في الإدراك الحسي وكذلك في الانتباه ، وقد نشرت جميعها في المجلات العلمية مثل مجلة الذهن Brain ومجلة العقل Mind ومجلة المراجعات السيكولوجية Psychological Review ومجلة علم النفس البريطانية British Journal of Psychology

المقالات :

كتب مكدوجال مقالات كثيرة تشرح مذهبه وتعبّر عنه مثل :

١ - مقالة إناس أم آلات Men or Robots

في كتاب علم النفس سنة ١٩٢٥ .

٢ - مقالة الانفعال والعاطفة متميزين

Emotion and Feeling Distinguished

وهي فصل من موسوعة وتنبرج في العاطفة

والانفعال . صدرت سنة ١٩٢٨ .

٣ - مقالة علم النفس الهورمي في كتاب علم النفس

سنة ١٩٣٠ .

ولمكدوجال غير ذلك من المقالات والفصول في

علم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس المرضى وعلم

النفس كدراسة جامعية ، وغير ذلك .

كتاب : تمهيد لعلم النفس الاجتماعي

An Introduction to Social Psychology

صدر سنة ١٩٠٨

يتناول الكاتب في فصل المقدمة من هذا الكتاب

ما في علم النفس من نقائص جعلت العلوم الاجتماعية

الأخرى مثل الأخلاق والفلسفة والاقتصاد لا تتخذة

أساساً لها . وأول هذه النقائص أن قسم علم النفس الذي

يهم العلوم الاجتماعية ، وهو القسم الذي يعالج مصادر

أفعال الإنسان والدوافع المنظمة للنشاط الجسمي والعقلي ،

هذا القسم من علم النفس بقي على أكبر درجة من

التخلف ، وما زال حتى وقت كتابة هذا الكتاب ،

يسيطر عليه الغموض والفوضى والإبهام .

ومن أهم أسباب تأخر هذا القسم من علم النفس ،

أن المفكرين حيناً بدأوا يفكرون في الظاهرة الاجتماعية ،

ركزوا تفكيرهم على المشكلات الراهنة وفسروها عن

طريق الاستدلال من قواعد عامة . هذه القواعد العامة

لم تكن إلا تصورات شائعة بين الناس ، نمت ببطء

خلال الأجيال ، ووضعت بصورة صريحة وإن تكن

غير واضحة بواسطة اللاهوتيين والميتافيزيقيين . وحينما

اعترف بالمنهج العلمي في القرن الثامن عشر وبداية

القرن التاسع عشر ، استمر هؤلاء المفكرون في الظاهرة

الاجتماعية يبحثون عن التفسيرات المختلفة لهذه الظاهرة ،

مبتدئين بأصول ثنوية كانوا يحسبونها - خطأ -

أصولاً أساسية . وبقوا على هذا الحال بدلاً من أن

يسعوا إلى اكتشاف التكوين الأساسي للعقل البشري .

وكان مما صرف المفكرين في ذلك الوقت عن

البحث في تكوين العقل البشري ، انشغالهم في وضع

قواعد عامة لهداية النشاط الإنساني في ميداني التشريع

والأخلاق ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت

هناك ثغرة كبيرة لا بد من ملئها ، ولم يكن لملأها إلا

علم الحياة (البيولوجي) . فقد كان من الضروري أن

ينشأ علم نفس مقارن تطوري ليكون أساساً لدراسة

العقل البشري ، ومثل هذا الأساس لم يكن ليوجد قبل

نظرية « دارون » وتفتح الأذهان لربط تطور الإنسان

بتطور الحيوان فيما يختص بالنواحي الجسمية ، ثم بحث

اتصال تطور الإنسان بالحيوان من الناحية العقلية .

كان من المنتظر للمشتغلين بعلم النفس بعد ذلك أن

ينظروا نظرة أشمل لعلمهم ، وأن يدعموه كعلم ،

ويثبتوا وجوده في ميدان العلوم الاجتماعية . لكن الواقع

أنهم بقوا وشغلهم الشاغل بحث لإدخال طريقة التأمل

الباطني في المنهج العلمي التجريبي ، وإعادة النظر في

الموضوعات التي سبق دراستها بهذه الطريقة التأملية .

وقد ترتب على هذا الموقف للمفكرين في علم

النفس نتائج وخيمة ، أدى إليها اقتباس أفكار مما كان

يقدمه هؤلاء المفكرون حينذاك على أنه حقائق نفسية ،

ثم بناء اتجاهات فكرية على أساس هذه الأفكار .

وإن في علم الأخلاق لمثلاً واضحاً في هذا الباب .

فقد لعبت أفكار مضللة من النوع الذي ذكرناه ، دوراً

رئيسياً في هذا العلم ، ووجهت كل مادة علم الأخلاق

فى القرن التاسع عشر . وأول هذه الأفكار فكرة «السعادة النفسية» ، تلك النظرية التى مؤداها أن موجهاات السلوك الإنسانى تنحصر فى نوعين من الدوافع هما : طلب اللذة وتجنب الألم . وجنباً إلى جنب مع هذه الفكرة الزائفة ، قامت فكرة زائفة ثانية ، هى أن السعادة واللذة لفظتان مترادفتان . وقد اتخذت هاتان الفكرتان أساساً نفسياً للمذهب النفعى . وجعلت هذا المذهب ممقوتاً لدى كثير من المفكرين ، كما ساقنا هؤلاء المفكرين إلى الالتجاء لأفكار غامضة خفية مثل فكرة الحدس الأخلاقى أو الحاسة الأخلاقية . وكانت هذه الفكرة ثالث الأفكار الزائفة التى قامت عليها المذاهب الأخلاقية حينذاك .

وما يقال عن الأخلاق يمكن أن يقال عن العلوم الإجتماعية الأخرى ، مما يشهد على حاجة هذه العلوم كلها إلى نظرية صادقة عن الدوافع الإنسانية .

ويلخص «مكدوجال» فى نهاية المقدمة الغرض الأساسى لعرضه تطور علم النفس وعلاقته بالعلوم الإجتماعية الأخرى ، فيشير إلى ضرورة التخلّى عن التصور القاصر لعلم النفس والذى مؤداه أن هذا العلم هو علم الشعور ، وإلى ضرورة اقتناع علماء النفس بأن علمهم هو علم الدراسة الإيجابية للعقل من كل نواحيه ووظائفه ، أو أنه هو علم السلوك ، وهذا ما يفصله مكدوجال .

ويختتم مكدوجال كلامه فى هذا الموضوع بالتأكيد على ضرورة وضع أساس قوى لعلم النفس ، وبأن يكون هذا الأساس متمثلاً فى دراسة نفسية فسيولوجية مقارنة ، تعتمد على الطريقة الموضوعية فى ملاحظة سلوك مجموعات مختلفة من الناس والحيوان فى ظروف مختلفة ، وأن تكون هذه الدراسة بمثابة تاريخ طبيعى للعقل ، يمدنا بالعناصر الأساسية لتكويننا العقلى الفطرى .

وقد وضع «مكدوجال» هذا الكتاب ، كتاب «تمهيد لعلم النفس الإجتماعى» ليكون محاولة أولى لمثل هذه الدراسة . ويقع الكتاب فى قسمين كبيرين : يتناول القسم الأول منه السمات العقلية ذات الأهمية البالغة لحياة الإنسان فى المجتمع . ويتناول القسم الثانى عمل الميول الأولية للعقل البشرى فى حياة المجتمع .

القسم الأول السمات العقلية البالغة الأهمية لحياة الإنسان فى المجتمع

يدرس المؤلف فى أول فصل من الفصول الثمانية لهذا القسم من الكتاب ، طبيعة الغرائز ودورها فى تكوين العقل البشرى ويبدأ بعرض نظريته المعروفة التى مؤداها أن للعقل ميولاً فطرية هى الأسس الضرورية والقوى الدافعة لكل تفكير أو سلوك ، سواء كان فردياً أو جماعياً . وهى — أى الميول الفطرية — الأساس الذى ينشأ منه تدريجياً خلق الفرد وإرادته وطابع الأمة وعزيمتها . هذه الميول الأولية الفطرية تختلف فى قوتها باختلاف الأجناس ، كما تختلف درجة قبولها أو رفضها باختلاف الظروف الإجتماعية فى مختلف الثقافات لكنها مع ذلك موجودة وشائعة بين الناس فى كل الأجناس وفى كل العصور .

الطبيعة البشرية قائمة على هذا الأساس الفطرى الثابت فى كل زمان وكل مكان ، والدليل على ذلك — يمدنا به علم النفس المقارن . فن دراسات هذا العلم أمكن التأكد من أن هذه الميول الفطرية توجد بدرجات متفاوتة عند كل أفراد الجنس البشرى ، كما توجد أو توجد بذورها عند معظم الحيوانات الراقية .

هذه الميول الهامة التى تمثل أساس الطابع البشرى تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما :

١ — الميول الخاصة أو الغرائز .

٢ - الميول العامة التي تنشأ من طبيعة العمليات العقلية عندما يصل العقل البشرى إلى درجة معينة من التعقيد في سلم التطور :

ويستعرض « مكدوجال » تاريخ كلمة « غريزة » وكيف ظلت فترة طويلة تستعمل استعمالاً مائعاً كاد يفقدها الصلاحية للاستعمال العلمي ، ثم كيف اتفق علماء النفس أخيراً (في وقت تأليف هذا الكتاب) على معنى واحد مستقر لها ، فاستعملوها لتدل على ميول فطرية معينة تظهر عند أفراد جنس معين ، ولا يمكن نزعها من التكوين النفسى لأنها عناصر فطرية موروثة . لكن على الرغم من اتفاق علماء النفس على معنى الغريزة ، تجدهم قد اختلفوا في تحديد دورها في حياة الإنسان في العصور المختلفة . فبعضهم يرى أن نمو الذكاء والقدرة على التفكير يضعف الجانب الغريزى في الإنسان ، وأننا في عصرنا الحاضر المتحضر لا نجد باقياً من غرائز الإنسان إلا قليلاً . أما البعض الآخر فيرى أن الذكاء مهماً وتطور لا يمكن أن يحل محل الغرائز ، لا عند الإنسان ولا عند الحيوانات الراقية . كل ما يحدث هو التحكم في عمل الغرائز وتعديل هذا العمل أما الفريق الثالث فيرى أن الإنسان يملك من الغرائز عدداً كبيراً بقدر ما يملك الحيوان ، وأن هذه الغرائز مركز القيادة في تحديد سلوك الإنسان وعملياته العقلية . هذا رأى هو الذى ساد في ذلك الوقت (أيام تأليف هذا الكتاب) ، والذى أخذ به مكدوجال ووضع كتابه هذا ليدعمه وليسانده في الاعتراف بكل مجال الغرائز البشرية ووظائفها .

وبعد أن يستعرض مكدوجال السلوك الغريزى عند الحيوانات ، وهو السلوك الغريزى الخالص النقى في نظره ، يقرر أن الغريزة حتى في صورتها الخالصة تكون نتيجة لعملية عقلية مميزة ، عملية لا يمكن أن توصف بأنها آلية فحسب ، لأنها عملية نفسية جسمية تشتمل على تغيرات جسمية ونفسية معاً ، وأن شأنها شأن سائر

العمليات النفسية تتضمن ثلاثة جوانب هي : الجانب الإدراكى ، والجانب الوجدانى ، والجانب النزوعى . هذه الجوانب الثلاثة لا يمكن ملاحظتها ملاحظة مباشرة لكننا نجد مبرراً لافتراض وجود كل منها . فما يبرر لنا وجود الجانب الإدراكى في هذه العملية النفسية ، أن التهيج العصبى يبدو وكأنه يعبر أجزاء من المخ من شأن تهيجها أن يؤدى إلى إحساسات وتغيرات في المحتوى الحسى للشعور . وأما ما يبرر لنا وجود الجانب الوجدانى ، فهو أن الكائن الحى يبدى أعراضاً تدل دلالة لا تخطئ على وجود وجدان وتهيج انفعالى . ولعل أوضح المبررات هو مبرر وجود الجانب النزوعى ذلك المبرر الذى يتمثل في السعى الدائب نحو الهدف الطبيعى للعملية .

وبناء على ما تقدم يعرف مكدوجال الغريزة بأنها اتجاه نفسى جسمى موروث أو فطرى ، يهئ صاحبه لإدراك أشياء من نوع معين والانتباه إليها والشعور بتهيج وجدانى من نوع خاص ، ثم القيام بعمل له طابع معين ، أو على الأقل الشعور بدافع للقيام بمثل هذا العمل :

هذه الغرائز تحدد سلوك الحيوانات الدنيا تحديداً تاماً ، فيما عدا تعديل طفيف للغاية تدخله الخبرة على هذا السلوك . أما عند الحيوانات العليا فنجد تعديلاً أكبر يتم عن طريق التعلم من أجل التوافق مع الظروف البيئية الجديدة . فإذا وصلنا للإنسان نجد تعقيدات شاملة في السلوك الغريزى كان من شأنها أن تخفى التشابه بين الإنسان والحيوان في العمليات الغريزية زمنياً طويلاً : هذه التعقيدات عند الإنسان ذات أنواع أربعة رئيسية نثنيها في الظواهر التالية :

أولاً : تصبح الاستجابات الغريزية قادرة على أن تنشأ ليس فقط بواسطة إدراك الأشياء التى تثير الاتجاه الفطرى مباشرة ، وإنما تنشأ كذلك من التفكير

في مثل هذه الأشياء ، كما تنشأ من إدراك أشياء من نوع آخر ومن التفكير في هذه الأشياء الأخرى .

ثانياً : أن الحركات الجسمية التي تعبر عن الغريزة تتعدل وتتعدد لدرجة كبيرة .

ثالثاً : أن بضعة غرائز تثار الواحدة بعد الأخرى بسبب تعقد الأفكار التي تستحضر نشاط هذه الغرائز ، وترابط هذه الأفكار .

رابعاً : تنتظم الغرائز بدرجات متفاوتة حول موضوعات معينة أو أفكاراً معينة ، وذلك بتوجيه من الميول .

ومما يلاحظ على العمليات الغريزية عند الإنسان ، أنها تكون قابلة للتعديل في نواحيها الإدراكية والنزوعية ، أما المرحلة الوجدانية فتبقى بلا تغيير ، وتعين نوع الانفعالات التي تسود الشعور ، كما تعين التغيرات الحشوية التي تميز تهيج الغريزة .

ليست هذه الدوافع الغريزية هي كل ما يثير السلوك البشري من قوى ، وإنما هناك العادات المكتسبة في التفكير وفي العمل . هذه العادات تنشأ لحد ما من الغرائز . فالغريزة تثير سلوكاً معيناً ، والسلوك إذا تكرر أصبح عادة ، وهذه العادة تقوى بالتكرار ، وتصبح دافعاً قوياً للسلوك . لكنها مهما قويت لا تصل في قوتها إلى درجة الدافع الغريزي . إنها مشتقة منه وثنائية بالنسبة إليه .

أما فيما يختص باللذة والألم ، فيقول « مكدوجال » إنهما ليسا في ذاتهما من دوافع السلوك ، لكنهما يؤثران على العمليات الغريزية ، فتميل اللذة إلى الاحتفاظ بالسلوك وإطالة مدته ، ويميل الألم إلى قطع السلوك ووقفه .

هذه الغرائز البشرية الرئيسية يتناولها مكدوجال بالشرح والتحليل في الفصل الثالث من كتابه . فيبين الجانب الوجداني لكل منها ، ويميزه ، ويطلق عليه

اسماً خاصاً به ، كما يبين التغيرات الجسمية والحركات التي تصاحب الجانب النزوعي من كل غريزة .

أما الجانب الوجداني من الغريزة فيسميه مكدوجال بالانفعال الأولي . قد يكون هذا الانفعال الأولي غضباً أو خوفاً أو استطلاعاً . وهناك قاعدتان للتأكد من كون هذا الانفعال أولياً وأنه مصاحب لدافع غريزي .

القاعدة الأولى : إذا وجد لمثل هذا الانفعال ، انفعال مماثل عند الحيوانات العليا .

القاعدة الثانية : أن يظهر الانفعال عند الإنسان بدرجة كبيرة من الشدة .

ويذكر ماكدوجال من هذه الغرائز الأساسية ، سبع غرائز تشترك جميعاً في أن إثارته تؤدي إلى أكثر الانفعالات الأولية تحديداً ، ومن هذه الانفعالات السبعة المحددة ، مضافاً إليها شعور اللذة أو الألم تتكون معظم الحالات الوجدانية .

هذه الغرائز السبع التي يذكرها مكدوجال ويميزها بانفعالاتها هي :

١ - غريزة الهرب ، وانفعالها الخوف .

٢ - غريزة النفور ، وانفعالها التقزز .

٣ - غريزة المقاتلة ، وانفعالها الغضب .

٤ - غريزة الاستطلاع ، وانفعالها التعجب .

٥ - غريزة لإذلال الذات ، وانفعالها الخضوع .

ويذكرها جنباً إلى جنب مع الغريزة التالية وهي :

٦ - غريزة تقرير الذات ، وانفعالها الزهو .

٧ - غريزة الأبوة .

وإلى جانب هذه الغرائز السبع ، غرائز إنسانية أخرى . وهي وإن كان بعضها يلعب دوراً صغيراً ثانوياً في تكوين الوجدانات ، إلا أنها ذات دوافع غاية في الأهمية بالنسبة للحياة الاجتماعية ، وهي :

١ - غريزة التوالد .

٢ - غريزة التجمع .

٣ - غريزة الإنشاء .

٤ - غريزة التحصيل أو التملك .

ويقوم « مكدوجال » بتحليل كل غريزة من هذه الغرائز ، فبين ضرورتها للكائن الحي ، ويذكر التغيرات الجسمية التي تطرأ على كيان الكائن الحي إذا أثرت واحدة من هذه الغرائز ، ثم يذكر الاستجابات الحركية التي تنشأ عنها . ونذكر فيما يلي على سبيل المثال ، ملخصاً لما ورد عن غريزة الهرب :

هذه الغريزة ضرورية لبقاء كل أنواع الحيوانات . وهى عند الحيوانات العليا من أقوى الغرائز . وإذا أثرت اندفع الجهاز الحركي في الكائن الحي إلى منتهى نشاطه ، وأحياناً يبلغ هذا النشاط من الشدة والدوام درجة لا تستطيع تحملها الأعضاء الحشوية ، مما قد يسبب الإجهاد التام للكائن الحي ، وربما الموت . وكثيراً ما يحقق الإنسان مهارات خارقة في الجرى والتسلق إذا أثّر عنده انفعال الخوف . وفي بعض حالات المرض النفسى ، يتمثل اضطراب المريض في الإثارة غير العادية لهذه الغريزة ، وفي تكرار هذه الإثارة بغير داع ، مما يجعل المريض يعيش في خوف دائم ، يرتعش رعباً من أقل الحيوانات إيذاءً ومن أقل الأصوات إزعاجاً ، فيحيط نفسه بمحصنات ضد هذا الخطر الوهمى .

ومثيرات هذه الغريزة عند معظم الحيوانات أشياء متنوعة ومنبهات حسية سابقة على كل خبرة بالألم أو بالخطر . أما عند الإنسان المتحضر الذى أحيط في حياته بوقاية من كل خطر ، فتختلف هذه الغريزة من حيث مثيراتها بين الأفراد اختلافاً كبيراً . ومن هنا يصعب اكتشاف طبيعة مثيرات الخوف عند الإنسان البدائي ، وإن كان يمكننا القول بأن المثير عند الطفل يكون أى صوت مرتفع مفاجئ ، وأن مثل هذا الصوت يبقى من أهم مثيرات هذه الغريزة طوال الحياة .

وغريزة الهرب إذا أثرت يتبعها التوارى أو الاستخفاء بمجرد الوصول إلى المأوى . ولا شك أن هذه الغريزة عند الرجل البدائي كان لها هذا الاتجاه المزدوج . وما زلنا نجد الشخص الذى يهرب من الأصوات الغريبة في ليلة مظلمة ، أو الذى يهرب من عاصفة رعدية يخفى رأسه تحت غطاء السرير ، ويجد أمناً وراحة في هذا ، مما يدل على استمرار هذا الطابع المزدوج لغريزة الهرب . وتمثل التغيرات الجسمية الفسيولوجية هذين الاتجاهين المتعارضين لغريزة الهرب والذين يتصلان بانفعال الخوف . فنجد من الأعراض الجسمية للخوف التوقف المفاجئ لضربات القلب والتنفس وشلل الحركة . . وهذه ترجع إلى الرغبة في الاختفاء . كما نجد التنفس السريع ، وسرعة النبض ، والطاقة الحركية القوية التي تدفع إلى السلوك العنيف ، وهذه ترجع إلى الرغبة في الهرب والابتعاد عن مصدر الخطر .

وينتقل « مكدوجال » في الفصل الرابع من الكتاب إلى نوع آخر من الميول الفطرية للعقل البشرى ، هذا النوع يتميز بأهميته العظمى للحياة الاجتماعية . هذه الميول هى : الإيحاء والمشاركة الوجدانية والتقليد . وهى متفقة في معالمها ، ففى كل منها تشتمل العملية التي يظهر فيها الميل على تفاعل بين شخصين على الأقل ، أحدهما الشخص المؤثر والآخر الشخص المتأثر . وفي كل منها تكون نتيجة العملية درجة من التشابه بين حركات المؤثر أو حالته النفسية وبين حركات المتأثر أو حالته النفسية . فهذه الميول تمثل ثلاثة أشكال من التفاعل النفسى تؤثر تأثيراً كبيراً في كل الحياة الاجتماعية للحيوان والإنسان .

هذه العمليات الثلاث من التفاعل النفسى بين مؤثر ومتأثر تمثل النواحي الثلاث المميزة للدوافع وهى : الناحية الإدراكية والناحية الوجدانية والناحية النزوعية . ففى الحالة الأولى الممثلة للناحية الإدراكية ، تثير فكرة

أو اعتقاد عند الشخص المؤثر فكرة مشابهة أو اعتقاداً مشابهاً عند الشخص المتأثر، وتسمى العملية حينئذ عملية إحياء. أما في الحالة الثانية، الممثلة للناحية الوجدانية فتشير حالة وجدانية عند المؤثر حالة مماثلة لها عند المتأثر، وتسمى العملية عملية مشاركة وجدانية. أما في الحالة الثالثة الممثلة للناحية الزوعية فتكون نتيجة العملية تشابهاً في الحركات بين المؤثر والمتأثر، وتسمى العملية في هذه الحالة تقليداً.

ويضيف «مكدوجال» إلى هذه الميول الفطرية الثلاثة ذات القيمة الاجتماعية، يضيف الميل إلى اللعب. ويرى أن هذا الميل يظهر تلقائياً دون خبرة سابقة أو تعلم. وهو ميل مركب يتضمن الرغبة في اكتساب المهارة، والرغبة في الاستمتاع باللعب الوهمي، ثم الرغبة في الزهو وفي التفوق على الآخرين.

فإذا وصلنا إلى الفصل الخامس من الكتاب، وجدنا مكدوجال يتكلم عن العواطف؛ طبيعتها وتكوينها، كما يتكلم عن تكوين بعض الانفعالات المركبة. ذلك لأن الإنفعالات الأولية كما عرضها من قبل في صورتها المجردة البسيطة، نادراً ما تظهر عند الإنسان بهذه البساطة التي تظهر بها عند الحيوان وإنما ما يظهر عند الإنسان هو مجموعة مركبة من هذه الإنفعالات الأولية. وتنقسم هذه الإنفعالات المركبة إلى مجموعتين:

١- تلك التي لا تقتضى وجود عاطفة:

٢- وتلك التي يشعر بها الشخص بفضل وجود عاطفة، يثير تكوينها هذه الانفعالات.

النوع الأول من الانفعالات المركبة يمثله الإعجاب فالإعجاب ليس انفعالاً أولياً. وإنما هو حالة وجدانية معقدة وتتطلب درجة كبيرة من النمو النفسى، فليس هناك حيوان يقدر على الإعجاب بالمعنى الدقيق، ولا نستطيع أن نفترض أن الأطفال الصغار قادرون

عليه. ذلك لأن الإعجاب يتضمن انفعالين أوليين هما: التعجب والشعور بإنكار الذات أو انفعال الخضوع. ونحن نشاهد التعجب عند الأطفال، كما نفعل نحن الكبار انفعال التعجب، ويكون السبب الجهل بما نراه. لكن الإعجاب أكثر من مجرد التعجب فنحن نقرب موضوع إعجابنا ببطء شديد وفي تردد، نشعر بالصغار في حضوره وفي حالة وجود شخص نعجب به إعجاباً شديداً نخجل ونشعر بالرغبة في الانكماش والتسمر في مكاننا، ونتجنب جذب انتباهه، أى أن غريزة الخضوع وإذلال النفس تثور عندنا مع الانفعال الخاص بها وهو الشعور بسلبية الذات أو إنكار الذات.

وانفعال الإعجاب، انفعال اجتماعى بالضرورة: فهو يقتضى وجود شخص أعظم وأقوى. وحتى حينما نعجب بصورة فنية أو لإنتاج أدبى يكون هذا الإعجاب له الطابع الاجتماعى، فنحن نعجب بالشخص الذى ابتدع هذا الفن.

أما النوع الثانى من الانفعالات المركبة، وهو النوع الذى يقتضى وجود عاطفة سبق تكوينها نحو الموضوع الذى يثير انفعالنا، هذا النوع تمثله الغيرة. فالغيرة تقتضى وجود عاطفة الحب. ويتضمن انفعال الغيرة الغضب من شخص ثالث يحاول انتزاع حب الشخص المحبوب لنفسه، كما يتضمن كبحاً مؤلماً يكبح به الشخص انفعاله الحائى الرقيق وعاطفة حبه.

أما كيف تتكون العواطف، فهذا ما نخصص له مكدوجال الفصل السادس من كتابه. والعاطفة عند مكدوجال نسق من انفعالات تتمركز حول موضوع ما فإذا أثير انفعال معين بقوة وبكثرة بواسطة موضوع ما كان هذا هو الأساس الذى تتكون عليه العاطفة. وتحدد الخبرة تنظيم الإنفعالات المكونة للعاطفة، أى أن العاطفة نمو في التكوين العقلى لا شأن له بالتكوين الفطرى الموروث:

التعاطف الإيجابي ، بل يكون الحب فيه من ناحية الأم وحدها .

ويخصص مكدوجال الفصل السابع لشرح طريقة تكوين الشعور بالذات وعاطفة اعتبار الذات . فبين المراحل التي يمر بها الفرد منذ طفولته المبكرة حتى يصل إلى تكوين عاطفة اعتبار الذات وما تقتضيه من شعور بالذات . هذه المراحل هي :

أولاً : مرحلة السلوك الغريزي الذي لا يشكله غير تأثير الألم واللذة .

ثانياً : مرحلة السلوك الغريزي الذي يخضع لتأثير الثواب والعقاب من المجتمع .

ثالثاً : مرحلة التعقيد بما يتوقعه الشخص من ذم أو مدح المجتمع .

رابعاً : المرحلة العليا التي ينظم السلوك فيها مثل أعلى يكون من شأنه أن يجعل الشخص يتصرف بالطريقة التي تبدو له صواباً بصرف النظر عن مدح أو ذم المجتمع .

ويشرح مكدوجال كل مرحلة من هذه المراحل وكيف تؤثر في الأنا التجريبي الواقعي حتى تصل به إلى تكوين عاطفة اعتبار الذات ، وتصبح هذه العاطفة هي الموجه للسلوك .

ويفرق « مكدوجال » بين عاطفة اعتبار الذات وبين الكبرياء . فهي تمتاز على الكبرياء بتضمنها عنصر إنكار الذات جنباً إلى جنب مع عنصر إثبات الذات . أما الكبرياء فتقتصر على إثبات الذات .

أما العناصر التي تؤدي إلى أخلاقية عاطفة اعتبار الذات أي التي تؤدي إلى صبغها بالصبغة الأخلاقية ، فهي :

أولاً : تأثير السلطة أو القوة ممثلاً في الثواب والعقاب .

ثانياً : دافع التعاطف الإيجابي والانسجام الشعوري الإنفعالي مع الزملاء .

للعواطف أهمية كبيرة في حياة الأفراد والجماعات . فهي تمثل المنظم للحياة العاطفية والمعرفية . بواسطتها نستطيع أن نتحكم تحكماً إرادياً في دوافعنا الإنفعالية الراهنة . كذلك تنبئ عليها أحكامنا على قيم الأشياء كما تنبئ عليها مبادئنا الخلقية ، لأن هذه المبادئ تشكل بواسطة أحكامنا على القيم الخلقية .

هناك ثلاث عواطف رئيسية هي : الحب والكراهية والاحترام . ويختلف الاحترام عن الحب في خلوه من الانفعال الحاني أو احتلال هذا الانفعال لمكانة ثانوية فيه . بينما يحتل هذا الانفعال الحاني مكانة رئيسية في الحب . أما المكونات الأساسية للاحترام ، فهي حالات إثبات وإنكار الذات . أو الشعور الإيجابي والشعور السلبي بالذات . كذلك يتميز الاحترام عن الحب بدخول الشين أو الشعور بالعار كأحد الانفعالات القوية المكونة له .

الاحترام إذن ، ينبني على أساس انفعالات حول الذات ، وأقوى هذه الانفعالات اعتبار الذات . لكنه مع ذلك يتجه نحو الغير ، أي تمكنا هذه العاطفة من احترام الغير . فكيف يحدث ذلك ؟ يجب « مكدوجال » بأننا نحترم من يحترم نفسه . وأن احترامنا للغير ما هو إلا انعكاس تعاطفي لاحترام الغير لنا . ونحن لا نحترم شخصاً إلا إذا أظهر هو احتراماً لنفسه ، مهما كنا نعجب به أو نحبه والحقيقة الشائعة التي نقول : إننا قد نحب دون أن نحترم وقد نحترم دون أن نحبه ، تبين بوضوح الفرق الأساسي بين طبيعتي هاتين العاطفتين : الحب والاحترام .

أما عاطفة الحب ، حب الند للند ، فتكون قائمة على أساس الإعجاب أو الاعتراف بالجميل أو الشفقة ، وتنمو هذه العاطفة عن طريق التعاطف الإيجابي أي التبادل . والتعاطف الإيجابي أهم ما يميز عاطفة حب الند للند عن عاطفة حب الأمومة . فحب الأمومة يقوم على أساس انفعال الحنو ، وليس من الضروري فيه

هذه العاطفة قد تمتد وتشمل بالإضافة إلى الذات ، أشخاصاً آخرين . فعاطفة اعتبار الذات عند الأب تمتد لتشمل الإبن وكل ما يتصل به . وذلك للتوحد الذاتي بين الأب والإبن ، بل تمتد لتشمل الأسرة بأسرها . فنجدته يراعى دائماً أن تقف أسرته موقفاً مرضياً أمام الأسر الأخرى . وتمتد أكثر لتشمل مدرسة الشخص ومدينته ومهنته وأمته . ومن هذا الامتداد لعاطفة اعتبار الذات تنشأ بواعث سلوك تتضمن التضحية بالنفس .

ويشرح مكدوجال في الفصل الثامن كيف يصل الشخص إلى المستويات العليا من السلوك الاجتماعى . فالشخص لا يقف في سلوكه الاجتماعى عند حد طلب الاستحسان وتجنب الاستهجان ممن حوله ، لأن في ذلك أنانية واضحة ، وهو لا يعمل حساباً حتى لهذا الاستحسان أو الاستهجان إذا تصرف بعيداً عن أعين الناس ، ثم إن السلوك المعتمد على استحسان أو استهجان المجتمع يكون مبنياً على أساس طبيعة التقاليد الخلقية التي ينشأ الفرد فيها ، ولكل مجتمع تقاليده الخاصة به ، وقد لا تعترف بهذه التقاليد المجتمعات الأخرى . كل ذلك من شأنه أن يجعل استحسان الجماعة أو استهجانها ، والثواب أو العقاب ، دوافع غير كافية للسلوك الاجتماعى في مستوياته العليا ، ذلك السلوك الذى يرضاه الإنسان كإنسان لنفسه ، بصرف النظر عن استهجان الجماعة أو استحسانها ، وبغير تقييد بتقاليد مجتمع محدود .

لا بد للشخص الذى يصل إلى المستويات العليا من السلوك الاجتماعى ، لا بد له أن يكون عواطف غيرية مجردة أى غير متعلقة بشئ عيى ، مثل حب الخير والعدالة ، هذا بالإضافة إلى تكوين عادة نقد الذات وهذه العادة تنبثق من عاطفة اعتبار الذات حين تبلغ هذه العاطفة درجة كبيرة من القوة والتماسك .

كذلك من الضرورى للوصول إلى أعلى مستويات السلوك الاجتماعى ، أن ترتبط العواطف الخلقية الخاصة بعاطفة أكثر شمولاً ، أو عاطفة سائدة بين كل العواطف

عاطفة نحو حياة خلقية كاملة أو مثالية . فإذا اكتسب الشخص هذه العاطفة ، فإنه يهدف لتحقيق مثل هذه الحياة الخلقية المثالية ، ليس لنفسه فحسب ، وإنما لكل الناس . ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وينهى « مكدوجال » القسم الأول من كتابه بفصل عن الإرادة . والإرادة عنده ، أو جهد العزيمة ، تنشأ حينما يعانى الشخص صراعاً خلقياً ، ويكون الدور الذى يقوم به هو مناصرة جانب الدافع الأضعف .

ويتميز الفعل الإرادى عن الأفعال النزوعية الأخرى بهاتين الظاهرتين :

أولاً : أن مركز الشخصية ونواتها ، أو الشخص ذاته ، أو ذلك الجانب الذى يعده الشخص والأشخاص الآخرون أهم جوانب نفسه ، هو الذى يقف إلى جانب الدافع الأضعف ويؤازره ويقويه .

ثانياً : أن يركز الشخص انتباهه على فكرة في بوثة الشعور ، ويبذل جهداً في تركيز الانتباه على هذه الفكرة .

مكدوجال إذن يتفق مع « وليام جيمس » في أن تركيز الانتباه شرط أساسى للعمل الإرادى . لكنه يختلف معه ومع « فندت » في جعل كبت الأفكار المنافسة للفكرة التى يتركز عليها الانتباه شرطاً أساسياً كذلك للفعل الإرادى . ذلك أن مكدوجال يرى أن الإرادة تتضمن بالضرورة زيادة إيجابية في الطاقة التى تحافظ بها الفكرة على نفسها في الشعور والتى تمكنها من تقرير عمليات جسمية وعقلية تتمشى معها .

وينهى مكدوجال هذا الفصل ، بالنظر في العلاقة بين الإرادة وبين الخلق Character . فقد عرف الخلق بأنه ما ينشأ عن الإرادة كما عرفت الإرادة بأنها ما ينشأ عنه الخلق . فما هو الخلق ؟

لا شك أن العواطف تكون جانباً كبيراً مما نسميه بالخلق . لكن هناك شيئاً إضافياً إلى جانب العواطف يدخل في تكوين الخلق . وما يؤيد ذلك وجود أشخاص

يتملكون عواطف قوية ، لكنهم لا يمتلكون خلقاً قوياً . ذلك لأن أحد الشروط الضرورية للخلق القوى تنظيم العواطف في نسق تسلسلي منتظم . هذا التنظيم يقتضى سيادة عاطفة من العواطف تكون في كل الحالات قادرة على إمداد الشخص بدافع سائد يوجه كل السلوك نحو تحقيق هدف أساسى واحد .

والعاطفة السائدة قد تكون عاطفة مجردة مثل حب العدالة ، وقد تكون عاطفة عينية مثل حب المال . لكن هناك عاطفة واحدة إذا سادت تولد عن سيادتها الخلق القوى بأكمل معانيه . هذه العاطفة هي عاطفة اعتبار الذات . وهذه العاطفة ليست عاطفة أخلاقية ، فهي وإن كانت تولد الخلق إلا أن الخلق الذى يتولد منها ليس خلقاً أخلاقياً . فلكى ينشأ هذا الخلق الأخلاقى يجب أن ترتبط عاطفة اعتبار الذات بعاطفة نحو مثل أعلى ، وأن تسود هذه العاطفة بحكم العادة سيادة دائمة .

القسم الثانى

الميل الفطرية للعقل البشرى
وتأثيرها في حياة المجتمعات

يتناول مكدوجال في الفصل الأول من هذا القسم ، غريزتي التناسل والأبوة . فيبين كيف أن الغريزة الأولى من أقوى الغرائز عند الإنسان حتى أن ضبطها وتنظيمها يعد من أصعب المشكلات التى تصادف الفرد وتصادف المجتمع . ولذلك نجد هذه الغريزة قد أخضعت في كل العصور وفي كل المجتمعات لتقاليد اجتماعية صارمة ، ولقوانين محاطة بأشد العقوبات لمن يخرج عليها .

وغريزة التناسل لا تعمل جنباً إلى جنب مع غريزة الأبوة عند كثير من الأنواع الحيوانية ، لكنها تتصل اتصالاً وثيقاً بغريزة الأبوة عند الإنسان وتعمل معها جنباً إلى جنب ، حتى أن مكدوجال يرى أنه يوجد ارتباط قوى بين قوتي الغريزتين ، كلما قويت إحداهما

قويت الأخرى . كما أن العمليات الاجتماعية المترتبة على هاتين الغريزتين متداخلة وممزجة تماماً بحيث يصعب التمييز بين ما هو خاص بغريزة التناسل منها وبين ما هو خاص بغريزة الأبوة . والغريزتان معاً يدفعان الفرد إلى كمية من النشاط والفاعلية أكثر مما يدفعه إليه كل الدوافع الأخرى مجتمعة .

وغريزة الأبوة بوجه خاص ، وهى أساس النظام الأسرى الذى هو الشرط الأساسى لصحة المجتمع ، هذه الغريزة تدفع إلى أفعال فيها تضحيات تتمثل في كبح الميول الأنانية من ناحية الآباء ، وفي الكدح المتواصل من ناحية الأبناء . ولما كانت هذه التضحيات من ناحية الآباء والأبناء ، شرطاً ضرورياً لبقاء المجتمع ونموه ، سواء كبر هذا المجتمع أو صغر ، كانت نظم الزواج وواجبات الآباء محاطة بأكثر الضمانات الاجتماعية قداسة ، وكانت هذه الضمانات مجسدة في رأى العام التقليدى وفي العادات وفي القوانين الرسمية .

وينتقل مكدوجال في الفصل التالى من هذا القسم من الكتاب ، وهو الفصل الحادى عشر ، ينتقل إلى الكلام عن غريزة المقاتلة . فيبين كيف يختلف الأشخاص اختلافاً كبيراً في نصيب كل منهم من هذه الغريزة . فهى قوية للغاية عند البعض ، ضعيفة للغاية عند البعض الآخر . وليس هناك ما يدعونا للظن بأن هذه الغريزة قد ضعفت في المجتمعات المتحضرة الآن ، فهى عند الأوربيين — في ذلك الوقت كما يرى مكدوجال — أقوى مما كانت عند البدائيين وكل ما في الأمر أن طرق التعبير عنها قد تغيرت بتقدم الحضارة . فلم يعد التعبير عنها يقتضى عدواناً جسيماً ، أو عراقاً فردياً ، وإنما أصبح التعبير عنها يظهر في صورة حرب جماعية . وأصبحت أهم وظيفة من وظائف الدولة الحديثة الآن هى التحكم في هذا القتال ، لكننا لا زلنا بعيدين عن الوقت الذى يقرر فيه القانون الدولى

الاستغناء عن القتال بين الدول ، كما استغنى الأفراد في المجتمعات المتحضرة عن القتال فيما بينهم .
ويمضى مكدوجال في حديثه عن غريزة المقاتلة فيقول : قد يبدو أن هذه الغريزة الهدامة من البقايا البدائية التي يجب أن تستأصل من العقل البشرى في المجتمعات الحديثة . لكن شيئاً من التأمل يرينا أن هذه الغريزة ، فوق أنها لم تكن هدامة تماماً ، كانت أحد العوامل الأساسية في تطور النظم الاجتماعية العليا . كما كانت أحد العوامل الأساسية كذلك في نمو الصفات الاجتماعية الخاصة عند الإنسان ، تلك الصفات التي يعد نموها شرطاً أساسياً للحياة الاجتماعية على مستوى عال . ذلك أن النجاح في معركة من المعارك بين مجموعتين من الأشخاص ، لا يعتمد على قوة الأشخاص الحاربين وشراستهم فحسب ، وإنما يعتمد كذلك على قدرة الأشخاص على التعاون والزمالة وعلى الثقة المتبادلة فيما بينهم ، وعلى قدرتهم على إخضاع دوافعهم الأنانية والتحكم فيها في سبيل هدف الجماعة ، وفي سبيل الانصياع لأوامر من قبلوه رئيساً . وعلى ذلك فن شأن القتال على هذا الوجه ، إذا تكرر بين الأجيال المتعاقبة ، من شأنه أن يخلق في الناس صفات خلقية واجتماعية هي الصفات الضرورية لكل تعاون فعال وللأنظمة الاجتماعية العليا .

وكما احتلت المنافسة مكان المقاتلة في حياة الفرد ، واكتسبت مع التطور أهمية كبيرة في حياة الأفراد ، كذلك احتلت المنافسة مكان المقاتلة في حياة المجتمعات ، وأصبحت هي القوة الدافعة لتطور الحياة الاجتماعية والنظم الاجتماعية .

ويمر مكدوجال مرأً سريعاً على غريزة التجمع فيقول : إن هذه الغريزة كان لها دور كبير في التطور الاجتماعي في فجر الحياة ، وعندما كان عدد الناس ضئيلاً ، وكان لا بد من تجمعهم لكي يشعروا بالحاجة إلى القوانين والنظم . أما في المجتمعات الحديثة الآن فلإنها

أصبحت أقل أهمية ، وذلك لكثافة السكان التي تؤدي إلى التجمع بما فيه الكفاية .

وفي الفصل الثالث عشر يتناول مكدوجال الغرائز التي تؤثر عن طريقها الأفكار الدينية في الحياة الاجتماعية . وهي الغرائز التي تعرض لها من قبل مثل غريزة الإعجاب التي هي تعجب مع إنكار للذات ، وغريزة الرهبة التي هي إعجاب وخوف وغريزة التبجيل التي هي رهبة تمازجها عاطفة رحمة رقيقة .

ويرى مكدوجال أن الدين قد أثر عن طريق الغرائز تأثيراً كبيراً في التطور الاجتماعي . فقد لعبت غريزة الخوف دوراً كبيراً في خلق الشعور الديني « الخوف من العقاب الجسمي أولاً ، ثم الخوف من غضب الآخرين ، ثم الرهبة التي يتحول إليها الخوف فيما بعد . وبنشأة اللغة وتطورها يعيش الإنسان في عالم أفكاره ، تدفعه غريزة الاستطلاع إلى التفكير في الأشياء التي تثير تعجبه وخوفه ، أي الأشياء التي يشعر أمامها بالرهبة ، ويبدأ في وضع النظريات التي تفسرها . ويبقى الخوف من العقاب الإلهي عاملاً هاماً في المحافظة على العادات والقوانين .

ويختتم مكدوجال الجزء الثاني من كتابه بفصل عن التقليد واللعب والعادة ، وأثرها في الحياة الاجتماعية . فالتقليد أقوى ميل اجتماعي يساعد المجتمع على الاحتفاظ بمعلمه وتقاليده . ويلعب دوراً رئيسياً في تقدم الحضارة ، وذلك بنشره للإنتاج العملي الممتاز من جهة ، وللأفكار والثقافة من جهة أخرى ، وانتشار أي عنصر ثقافي ، مثل العقيدة أو الفن أو الاتجاه العقلي المعين ، يكون انتشاراً هندسياً ، لأن كل فرد أو مجموعة من الأفراد تقلد الفكرة الجديدة تصبح بدورها مركزاً اجتماعياً لإشعاع هذه الفكرة من جديد .

أما دافع اللعب فيمثل أحد الجذور الرئيسية للإنتاج الفني . والأعمال الفنية في أمة توجه انتباه الأفراد نحو أشياء معينة في الحياة وفي الطبيعة ، وتعلمهم أن يواجهوا

هذه الأشياء بوجودان متجانس ، كما يسعى الفن إلى صيغ علاقات الأفراد بصيغة اجتماعية رقيقة .

والعادة عند مكدوجال هي اتجاه العمليات العقلية لأن تصبح أكثر سهولة عن طريق التكرار ، أو ميل العقل لتكوين طرق فكرية وسلوكية تصبح أكثر ثباتاً عند الشخص مع تقدمه في السن ، حتى إنه ليصعب عليه إذا كبر أن يلجأ إلى طرق جديدة .

وفي ملحق للكتاب ، يعرض مكدوجال نظريته في السلوك ، تلك النظرية التي عرضها في كتابه لكنها لم تلتفت نظر النقاد في الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، فقرر أن ينحصر لها مكاناً مستقلاً في الطبقات التالية ، حتى يبرزها ويؤكد أهميتها من جهة ، وحتى يحقق أغراضاً ثلاثة كان حريصاً على تحقيقها من جهة أخرى ، هذه الأغراض الثلاثة هي :

أولاً : أن يجذب الانتباه إليها .

ثانياً : أن يقدمها كنظرية مستقلة يجابه بها زملاءه علماء النفس من جهة ، ويجابه بها المشتغلين بالفلسفة الأخلاقية من جهة أخرى ، وخاصة هؤلاء الأخيرين الذين خصهم علماء النفس بنظرتهم الإيجابية في السلوك . ثالثاً : أن يساعد دارسي علم النفس والأخلاق على فهم علاقة نظرية السلوك التي يعرضها هذا الكتاب بالنظريات الأخرى الشائعة في ذلك الوقت .

يتميز سلوك الكائن الحي ، كما يرى مكدوجال ، بالميزات الأربع التالية :

١- إن الكائن الحي يسعى دائماً إلى هدف ، ولا يتوقف حتى يصل إلى هذا الهدف ، مهما صادفه من عقبات ، بل إن العقبات التي تصادفه قد تقوى من اندفاعه نحو الهدف .

٢- إن سلوك الكائن الحي ليس مجرد اندفاع مستمر في اتجاه معين . حقيقة يستمر السلوك رغم اصطدامه بعقبات ، لكنه يغير اتجاهه مرة ومرة حتى يتغلب على العقبة ويصل إلى الهدف .

٣- يشترك كيان الكائن الحي كله في سلوكه . فكل سلوك ليس حركة جزء محدد من جسم الكائن الحي ، كما هو الحال في الحركة المنعكسة ، وإنما يشترك الجسم كله في التركيز على العمل الذي يؤديه الفرد .

٤- سلوك الكائن الحي لا يتكرر بنفس الطريقة . فقد يثير موقف سلوكاً معيناً كان قد أثاره من قبل . لكن هذا السلوك في المرة الثانية لا يتكرر بنفس الطريقة التي حدث بها في المرة الأولى ، إنه يتحسن ويتعدل ويختار طرقاً أكثر توافقاً للوصول إلى الهدف .

وينتهي مكدوجال إلى هذه الحقيقة التي تميز مذهبه الغرضي ، وهي أن موجة السلوك هو الهدف أو الغاية . فالشرط الضروري للسلوك هو أن يثار ميل نزوعي ، أو استعداد كامن . ثم أن يقوم تصور الغاية بتوجيه السلوك بالتفصيل . فإذا كان هذا التصور للغاية غامضاً أو عاماً ، جاء السلوك غامضاً ناقص التوجيه في تفاصيله ، يضل السبيل إلى الغاية . أما إذا كان تصور الغاية تفصيلياً كاملاً جاء السلوك متخصصاً موفقاً في الوصول إلى الغاية .

كذلك ينحصر مكدوجال في ملحق الكتاب فصلاً للغريزة الجنسية وذلك لأن السلوك الجنسي والخبرة الجنسية يوضحان نظريته الغرضية أكبر وضوح ، ويبينان طبيعة الغريزة التي يؤكد كتاب من أوله إلى آخره . والتي مؤداها أن الغريزة اتجاه فطري داخلي منظم ، وأنها ليست فقط اتجاهاً نحو القيام بعمل معين والشعور بحالة وجدانية معينة ، وإنما هي كذلك اتجاه نحو إدراك شيء معين هو الهدف الذي يتجه إليه كل من السلوك والشعور .

وهنا يتعرض مكدوجال لنظرية « فرويد » بالنقد ، ويبين كيف خلط « فرويد » بين الغريزة الجنسية وبين عاطفة الحب ، ثم يبين ضرورة إعلاء الغريزة الجنسية في الطفولة والشباب حتى يتقدم المجتمع ويصل إلى مستوى ثقافي راق .

نصوص مختارة

« يبنى الرافضون لنظرية الغرائز رفضهم على أساس القياس التالى :

كل الأفعال يمكن تفسيرها تفسيراً آلياً .

الأفعال الغريزية المزعومة لا تفسر تفسيراً آلياً .

إذاً ليست هناك أفعال غريزية ، وليست هناك غرائز .

فى هذا الاستدلال تفتقر المقدمة الكبرى إلى الأساس المتين . إنها لا تذكر إلا فكرة مسبقة يؤيدها العلم الحديث . وذلك لأن الاستناد إلى هذه المقدمة الكبرى كمبدأ موجه فى العلوم الطبيعية كان مثمراً للغاية لكننا لا نضمن أن تثبت صلاحية هذا المبدأ ويكون مثمراً على هذا الوجه فى العلوم البيولوجية . وهذه مسألة تترك للمستقبل حلها . فهناك أساس متين لوجهة النظر القائلة بأن قبول كثير من العلماء لهذا المبدأ فى علم البيولوجى فى الوقت الحاضر يعوق تقدم هذا العلم . وذلك يجعلنا فى حاجة لأن نفتتح أذهاننا جيداً لمثل هذه المسألة الأساسية . فالزعم بأننا نعرف حلاً لهذه المشكلة ليس إلا علامة على القصور العلمى ، بل إنه من دواعى الحكمة العلمية أن نلاحظ الظواهر بدقة ، وأن نصنفها ونفسرها بمساعدة مفاهيم عامة مناسبة والغريزة إحدى هذه المفاهيم العامة التى انقذنا إليها فى محاولتنا لوضع مبدأ عام يفسر الأشكال المختلفة للمناشط غير المتعلمة عند الإنسان والحيوان .

إننا حين ننظم هذه الأشكال من المناشط ، ونبحث عن صفاتها الموضوعية المشتركة ، نجد سبع صفات تميزها عن كل تحركات العالم غير العضوى ، هذه الصفات تميزها كمعاملات تعبر عن العقل ، عمليات « هورمية » (أى غرضية) بأوسع معانى هذه الكلمة ، عمليات غرضية ، تسعى إلى تحقيق هدف . هذه الصفات

وفى الفصل الثالث من ملحق الكتاب يتكلم مكدوجال عن الانفعالات المشتقة . وكان مكدوجالى قد تعرض فى الجزء الأول من هذا الكتاب لانفعالى الحزن والفرح ، وقال إنهما ليسا انفعالين أوليين ، وإنما هما حالة شعورية ليست أثراً مباشراً أو تعبيراً مباشراً ينتج عن إثارة غريزة ما . وإنما هى حالة تنشأ عندما يعمل أى ميل نزوعى تحت ظروف معينة . ولذلك تتميز هذه الحالة الشعورية من الفرح أو الحزن عن سائر الانفعالات ، وتسمى انفعالا مشتقاً أو ثانوياً .

وفى هذا الفصل يعرض مكدوجال لانفعالات أخرى من هذا النوع المشتق . تشترك جميعها فى أنها تظهر عندما تعمل الميول المختلفة للطبيعة البشرية تحت ظروف نفسية خاصة . وأنها لا تتصل بموقف نزوعى معين وإنما تنشأ لتلون كل الشعور بلون خاص عندما يعمل أحد هذه المواقف النزوعية فى ظروف مناسبة . ومن أمثلة هذه الانفعالات المشتقة ، انفعال الأمل وانفعال خيبة الأمل ، وانفعال القلق وانفعال القنوط ، وانفعال اليأس ، وانفعال الندم ، وانفعال الأسف وانفعال الحزن وانفعال الفرح .

وبالكتاب بعد ذلك فى الفصل الرابع من الملحق ، تعليقات على الفصول الأخرى منه ، يتعرض فيها الكاتب لبعض ما لم يتعرض له من قبل ، مثل غريزة الضحك والفكاهة وغيرهما .

ويختتم الكتاب بفصل عن غرائز الإنسان فى ضوء البحوث الأخيرة ، يشرح فيه وضع نظرية الغرائز فى مفترق الطرق بين التفسير الآلى للسلوك ، وبين التفسير الحيوى أو الغرضى له .

ونورد أهم ما جاء فى هذا الفصل فيما يلى من نصوص ، وذلك لأهميته البالغة فى الرد على الاعتراضات التى ووجهت بها نظرية الغرائز ، والتى ما زالت موضع نقاش وبحث حتى يومنا هذا .

أو المعالم الموضوعية الدالة على الغرضية يمكن حصرها فيما يلي :

أولاً : تلقائية في الحركة ، قدرة على المبادرة .

ثانياً : ميل للاستمرار ، سواء كانت الحركة المستمرة ظاهرة التلقائية ، أو كانت ناتجة عن تنبيه جسمي نبه به الكائن من خارج .

ثالثاً : تغيير في نوع الحركات المستمرة أو في اتجاهها .

رابعاً : توقف الحركات حينما ينتج عنها تحصيل الهدف - وليس قبل ذلك - توقف هذه الحركات عن إحداث تغير من نوع معين في الموقف .

خامساً : تستبق المتحركات بصفة عامة الموقف الجليد ، الذي تتجه هي نفسها لإحداثه . أو تمهد بطريقة ما لهذا الموقف .

سادساً : إن تكرار الموقف الذي أحدث سلسلة الحركات من شأنه أن يثير مرة أخرى سلسلة مشابهة من الحركات ، لكن الحركات التي تنشأ حينئذ تكون - إذا قورنت بالحركات السابقة - على درجة أكبر من التحسن من حيث الكفاية في السرعة أو في الدقة أو في حسن التكيف .

سابعاً : إن العمل الغرضي هو بمعنى من المعاني استجابة كلية ، أي أنه نشاط يساهم فيه كل الكيان كلما لزم ذلك . إن كل طاقات الكيان تميل إلى الاتجاه نحو الغاية الواحدة ، وكل ما حدا ذلك من العمليات المصاحبة في الكيان العضوي يخضع للنشاط الغرضي الأساسي السائد » .

« هذه الصفات الموضوعية السبع للنشاط الجسمي الغرضي ، لا نجدها في الأفعال المنعكسة ، وليست مما يتصل بهذه الأفعال ؛ لكنها توجد في كل حالات الأفعال الغريزية التي تهياً لنا أن نلاحظها بالتفصيل .

أضف إلى ذلك أننا حين نبدي فعلاً منعكساً ، لا نشعر بأى دافع يدفعنا نحو هدف ، أو أية رغبة في هذا الهدف . لكننا حين نقوم بعمل غريزي ، نشعر بمثل هذا « الدافع الداخلي » نشعر بإلحاح أو دفع أو رغبة ، مهما كان إدراكنا للهدف أو للغاية غامضاً . إن الفعل المنعكس يبدو وكأنه يثار في الجسم كاستجابة آلية لمنبه ، استجابة لم يساهم نحن كأشخاص واعي في إحداثها ، ولم نتدخل في هذا الإحداث ، بينما نحن في السلوك الغريزي أو في الرغبة الغريزية ، أو النزوع الغريزي ، نشعر بصفة عامة أننا نأخذ دوراً فعالاً ، وأنها نتدخل تدخلاً فعالاً ، حتى ولو كان هذا السلوك مما لا نؤيده إيجابياً ، وحتى لو كان مما نريد أن نتجنبه أو أن نقوم به . كل هذه الحقائق تحول لنا أن ننظر إلى الفعل الغريزي على أنه نوع مختلف عن الأفعال الآلية الخاصة وأنه نوع من الفعل يعبر إلى درجة ما عن الطبيعة العقلية أو النفسية للكائن الحي . لكن هذه الحقائق يتجاهلها ، أو ينحيا جانباً أولئك الذين يدعون العجز عن تمييز أى فارق بين السلوك الغريزي ، وبين السلوك المنعكس الآلي » .

(ص ٤١٠ إلى ص ٤١٣ من الطبعة الخامسة والعشرون التي صدرت لهذا الكتاب عام ١٩٤٣) .

« إن الاعتراض القائل بأن السلوك الغريزي ليس إلا سلسلة من الأفعال المنعكسة ومن الاستجابات الآلية لمنبهات جسمية ، هذا الاعتراض هو الاعتراض الرئيسي الذي يعترض به النقاد على نظرية الغرائز . لكن بالإضافة إلى هذا الاعتراض ، نجد كثيراً من النقاد يتشبهون باعتراض آخر ، قد يبدو لأول وهلة أن له بعض القبول . إنهم يقولون إن علم نفس الغرائز ليس إلا علم نفس الملكات القديم الذي يبنى على مغالطات . وكل ما في الأمر أنه قد أعد بشكل آخر . وهم يشيرون إلى تطبيقات بعض الكتاب الذين تعرضوا في دراساتهم الاجتماعية أو الأدبية لمشكلات نفسية ،

« يجب ألا ينظر علم النفس إلى الوصف التأملى لجرى الشعور على أنه هو كل مهمته ، فإن مثل هذا الوصف المبني على التأمل الباطنى ، مثل هذا « العلم النظرى للنفس » لا يمكن أن يبنى علماً ، أو هو على الأقل لا يرقى إلى مستوى العلم المفسر ، وهو لا يستطيع أن يكون فى حد ذاته ذا قيمة كبيرة للعلوم الاجتماعية . إن الأساس المطلوب لكل هذه العلوم هو علم نفس مقارن وفسولوجى يعتمد إلى حد كبير على طرق البحث الموضوعية ، على ملاحظة سلوك الناس والحيوانات من كل الأنواع وتحت تأثير كل الظروف الممكنة من صحة ومرض . ولا بد أن ينظر إليها أوسع نظرة ممكنة من حيث مجالها ومن حيث وظائفها ، وأن يكون بمثابة تاريخ حياة تطورى للعقل ، وفوق كل شئ يجب أن يهدف إلى إعداد تفسير دقيق شامل لتلك العناصر الأساسية لتكويننا ، أعنى الميول الفطرية التى تدفع للتفكير وللعمل والتى تكون الأساس الفطرى للعقل .

ومما يسرنا أن هذه النظرة الأشمل لعلم النفس قد بدأت تنتشر . فالعقل لم يعد ينظر إليه كصفحة بيضاء ، أو كمرآة سحرية وظيفتها أن تتلقى فى سلبية تأثيرات من العالم الخارجى ، أو أن تلقى بانعكاسات ناقصة لمواد هذا العالم — « صف من ظلال الأشكال يأتى ويروح » . ولم نعد الآن نقنع بأن نؤيد هذا التصور للعقل عند « لوك » ، نؤيده بمبدئين فحسب للنشاط الداخلى الباطن هما : مبدأ تداعى الأفكار وتوالدها ، ومبدأ الاتجاه نحو تحصيل اللذة وتجنب الألم . لقد اكتشف أن التفكير النفسى القديم كان مثله كمثل تمثيل مسرحية هاملت مع إسقاط دور أمير الدنمرك ، أو مثل وصف الآلات البخارية مع إهمال حقيقة وجود الدور الرئيسى للنار أو لأى مصدر آخر للحرارة . إننا نسمع من كل جانب أن علم النفس السكونى (الستاتيكي) الوصفى

أو الذين حلوا هذه المشكلات بالطريقة السهلة التى تسلم بوجود غرائز تتصل بالسلوك موضع البحث فى الجنس البشرى أو عند الأفراد المعنيين الذين يتعرضون لهم . وهم يؤيدون هذا الادعاء بقولهم : إن مختلف الكتاب الذين حاولوا معالجة مشكلات الغريزة بطريقة عملية أكثر ، لم يتفوقوا على الغرائز العامة المشتركة بالنسبة للجنس البشرى ، بل إن بعضهم يقيم البرهان على أنها قليلة والبعض الآخر يؤكد أنها كثيرة . وهنا يكفينى أن أسوق رأى الأستاذ تولمان Tolman فى تفنيده لهذا النقد . يقول تولمان : « إن فكرة الغرائز ، كما يقال ، مشابهة لفكرة الملكات العقلية التى هدمت الآن تماماً . لأن الغرائز ليست إلا تصورات مجردة رفعها علماء النفس إلى مستوى القوى الفعالة . إن الاتهام موجه مباشرة إلى النظريات الغائية . هذه النظريات التى تدعى وجود دوافع أو قوى خفية وراء الاستجابات الظاهرة . لكن ادعاء وجود هذه القوى لا يضيف شيئاً إلى تفسير يصف الظاهرة ويبين سببها . فهل هذا الاتهام صحيح ؟ هل التصورات الغائية ، بأى معنى جاد ، ارتداد إلى نظرية الملكات فى علم النفس ؟ إنهما من الصعب أن تبدو كذلك . وإلا فبأى طريقة أخرى يمكننا أن نصف الحقائق التجريبية بالبساطة والسهولة التى نصف بها مثل هذه الحقائق : إنه مع وجود ظروف بيئية ثابتة ، يكون المنبه الخارجى الواحد نفسه بحيث يثير فى وقت ما استجابة ما عند شخص معين ، وفى وقت آخر استجابة مختلفة تماماً عند نفس هذا الشخص . وأن المنبه الواحد نفسه يثير استجابتين مختلفتين عند شخصين مختلفين . كيف نفسر ذلك إلا بالتسليم بوجود درجات مختلفة من الميل الغريزى . لأن رد عمل ما أو مرحلة من السلوك رداً صحيحاً إلى غريزة معينة — كما يقول مكدوجال — يمكننا من التنبؤ بالمرحلة التالية من هذا السلوك » . (من ص ٤٢٢ إلى ص ٤٢٤) .

التحليل الخالص ، لا بد أن يخلى مكانه لنظرة في العقل تكون ديناميكية وظيفية تهتم بالإرادة .

إن تقدماً آخر في غاية الأهمية لتحقيق النفع المرجو من علم النفس ، يرجع إلى الاعتراف المتزايد بمدى اعتماد العقل البشرى في تكوينه على المؤثرات المتشابكة التي تأتيه من البيئة الاجتماعية . وكذلك يرجع هذا التقدم إلى الاعتراف المتزايد بأن العقل البشرى الفردى المحدود والذي كان لا يهتم بغیره علم النفس التأملى الوصفى القديم ، الاعتراف بأن هذا العقل الفردى ليس إلا صورة مجردة لا وجود لها في الواقع .

(ص ١٣ من طبعة سنة ١٩٤٣) .

الإعجاب : هذا بالتأكيد انفعال صادق ، وهو بالتأكيد كذلك ليس أولاً لأنه حالة وجدانية معقدة ، ويتطلب درجة كبيرة من النضج العقلى . فمن الصعب أن نفترض أن أى حيوان قادر على الإعجاب بالمعنى الصحيح لكلمة الإعجاب ، ولا أن نفترض أن الإعجاب مما يديه الأطفال الصغار . إنه ليس مجرد رؤيا ممتعة ، أو تأمل ممتع . وقد يجد الواحد منا لذة في رؤية شئ أو تأمله دون أن يشعر بأى إعجاب نحوه . كما أن الإعجاب ليس مجرد تقدير عقلى باعث على السرور بعظمة الشئ أو بكماله . فإنه يبدو من الضروري أن تتضمن الحالة المعقدة التي يثيرها تأمل الشئ موضع الإعجاب ، انفعالين أوليين هما : انفعال العجب وانفعال إنكار الذات أو انفعال الخضوع . ويظهر العجب في رغبة الاقتراب من الشئ موضع الإعجاب ، وفي مواصلة تأمله ، وهذا ، كما عرفنا ، هو الدافع المميز لغريزة الاستطلاع . والتعجب يرسم بوضوح على الوجه في حالة الإعجاب الشديد . وقد نلاحظ عند

الأطفال عنصر العجب يسود مشاعرهم ويعبرون عنه بوضوح في مثل هذه الجمل « كم هو عجيب ! » « كم هو ماهر ! » . . « كيف استطعت أن تفعل ذلك ؟ » وجمل أخرى من هذا القبيل مما يعبر به الطفل بطريقة طبيعية عن إعجابه ، ومما يبين بوضوح عنصر العجب ودافع الاستطلاع . وحينما نشعر أننا قد فهمنا الشئ الذى أعجبنا به فهماً تاماً ، ونستطيع أن نفسره تفسيراً كاملاً ، يقل تعجبنا ، ولا يبقى بعد ذلك الانفعال الذى أثاره هو انفعال الإعجاب .

لكن الإعجاب أكثر من التعجب ، إننا لا نتقدم ببساطة لفحص الشئ الذى نعجب به ، كما نفحص شيئاً يثير مجرد استطلاعنا أو تعجبنا ، إننا نقر به ببطء مع شئ من التردد ، نشعر بالصغار في حضوره ، وفي حالة وجود شخص نعجب به إعجاباً شديداً ، يصيبنا الخجل ، كما يصيب الطفل في حضرة شخص كبير غريب ، نشعر بالدافع للإنكماش ، لأن نتسمر في مكاننا ، ولأن نتجنب جذب انتباهه ، أى أن غريزة الخضوع مع ما يتصل بها من انفعال إنكار الذات يثيرها إحساسنا بأننا في حضرة قوة عليا ، شئ أعظم من أنفسنا من هنا نرى أن هذه الغريزة وانفعالها في أساسها وبالضرورة اجتماعيان . إن الشرط الأول لإثارتها هو وجود شخص أكبر وأقوى من أنفسنا . وحينما نعجب بشئ مثل صورة أو آلة أو عمل فنى ، يبقى الانفعال محتفظاً بهذا الطابع الاجتماعى وتلك الدلالة الشخصية . إن مبدع العمل الفنى يكون حاضراً بوضوح في أذهاننا ويكون حاضراً كموضوع لانفعالنا ، وكثيراً ما نقول لأنفسنا « أى رجل عجيب هذا الرجل » .

(ص ١١١ و ١١٢ من طبعة سنة ١٩٤٣) .